

المثنى

ألف المثنى ونونه - واختلاف القبائل العربية فيهما:

المثنى: عند عامة العرب: يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء وعليه قوله تعالى ﴿هَذَا خَصَمَانٌ﴾ [الحج: ١٩] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ﴾ [الرحمن: ٥٢].

لكنه قد أثر عن قبائل أخرى استعمالات خاصة تتعلق بألف هذا المثنى ونونه: ففيما يتعلق بالألف: فإننا نراهم قد سلكوا في شأنها طريقين:

١- بعض القبائل العربية من لا يخاف اللبس بين المثنى في حالة الرفع أو النصب أو الجر بل يلزمون المثنى الألف في الأحوال الثلاثة المذكورة^(١) ويستدل على الإعراب حينئذ بالعامل قبل المقصور. قال الشاعر:

هَيَّاكَ إِنَّ يَمِينِي الشَّعْشَعَانِ خَبُّ الْفُؤَادِ مَائِلُ الْيَدَانِ(*)
والوجه اليمين^(٢).

قال آخر:

أَعْرِفْ مِنْهَا الْجِيْدَ وَالْعَيْنَانَا وَمَنْخَرَيْنِ أَشْبَهَا ظَبْيَانَا(**)

وجعل منه قراءة بعض السبعة: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣]^(٣) بتشديد نون «إن» وألف ونون خفيفة في «هذان»^(٤).

(١) الخزانة ٣: ٣٣٧. (٢) توجيه أبيات ملغزة الإعراب ٢٧٨.

(٣) ينظر في ذلك: المغني ١: ٣٨.

(٤) الكشف ٢: ٩٩، شرح الشاطبية ٢٤٧، النشر، ٣٢١. حجة القراءات ٤٥٤ وما بعدها، غيث النفع المطبوع على السراج ٢٩٠.

(*) البيت لم ينسب إلى أحد. والشعشعان: الطويل الحسن الخفيف اللحم. والخب: بالفتح الخداع. والفؤاد: القلب. وقيل بل هو غشاؤه. ومائل: من الميل يعيره بذلك.

والشاهد في ييدان: حيث ألزم المثنى الألف وذلك لغة.

(**) نسب البيت لرجل من ضبة هلك منذ أكثر من مائة سنة، والجيد: العنق ومنخر: خرق الأنف - وأصله موضع النخير وهو الصوت من الأنف - وظبيان: اسم رجل لا مثنى ظبي. والشاهد: في عينانا حيث ألزم الشاعر العين في المثنى الألف في النصب.

وقد عُرِيتْ هذه اللغة إلى كنانة حكي ذلك عن أبي الخطاب، ولبني الحارث بن كعب وبني الجهم وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وأهل تلك الناحية حكي ذلك عن الكسائي، وهمدان ومزادة ومراد وعذرة وبني العنبر وبعض بني سليم^(١).

وإلى ذلك التخريج في قراءة الآية السابقة مال أبو الخطاب وتابعه أبو عبيدة^(٢)، واختاره ابن مالك.

وقال الزجاج: وقال النحويون القدماء: ههنا هاء مضمرة والمعنى: إنه هذان لساحران، كما تقول: إنه زيد منطلق، ثم تقول: إن زيد منطلق^(٣).

وقال المبرد: أحسن ما قيل في هذا أن يجعل «إن» بمعنى «نعم» المعنى: نعم هذان لساحران، فيكون ابتداء وخبراً، وإليه مال الزجاج أيضاً.

وَرَدَّ بَأْنَا لَا نَسْلَمُ أَنَّ الْهَاءَ لِلْسَكْتِ بَلْ هِيَ ضَمِيرٌ مَنْصُوبٌ بِهَا وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ أَيْ أَنَّهُ كَذَلِكَ. وبأن مجيء «إن» بمعنى «نعم» شاذ. حتى قيل: إنه لم يثبت، كما أن اللام لا تدخل في خبر المبتدأ^(٤)، وأجيب عن ذلك: بأن من العرب من يدخل لام التوكيد في خبر المبتدأ فيقول: زيد لأخوك^(٥). فعلى هذا تكون زائدة، وليست للابتداء، أو بأنها داخلة على مبتدأ محذوف أى لهما ساحران أو بأنها دخلت بعد «إن» هذه لشبهها بأن المؤكدة لفظاً.

ويُضَعَفُ الْأَوَّلُ أَنَّ زِيَادَةَ اللَّامِ فِي الْخَبَرِ خَاصَّةٌ بِالشَّعْرِ، وَوَجْهُ الْكَلَامِ فِي الْمَثَالِ: لِأَخَوِكَ زَيْدٌ.

وكذلك كان وجه الكلام في الآية أن حملت «إن» على معنى «نعم»: إن هذان لساحران كما تقول نعم لهذان ساحران^(٦).

(١) شرح المفصل ١: ١٢٦، شرح الكافية ٢: ١٤١، الهمع ١: ٢١، ٤٠. الخزانة ٣: ٣٣٦، توجيه أبيات ملغزة الإعراب ٢٧٨، إعراب مشكل القرآن ٢: ٦٩.

(٢) حجة القراءات ٤٥٥.

(٣) حجة القراءات ٤٥٥، المغني ١: ٣٨.

(٤) المغني ١: ٣٨، وشذور الذهب ٤٩.

(٥) حجة القراءات ٤٥٥.

(٦) إعراب مشكل القرآن ٢: ٧٠.

كما أن الجمع بين لام التوكيد وحذف المبتدأ كالجمع بين متنافيين .

وقيل : اسم «إن» ضمير الشأن، وهذا أيضاً ضعيف لأن الموضوع لتقوية الكلام لا يناسبه الحذف، والمسموع من حذفه شاذ إلا في باب «أن» المفتوحة إذا خففت فاستسهلوه لوروده في كلام بني على التخفيف فحذف تبعاً لحذف النون، ولأنه لو ذكر لوجب التشديد إذ الضمائر ترد الأشياء إلى أصولها ألا ترى أن من يقول : لد، ولم يك، والله يقول : لدنك ولم يكنه وبك لأفعلن ثم ترد أشكال دخول اللام^(١).

وقال قطرب : يجوز أن يكون المعنى «أجل» فيكون المعنى -والله أعلم : فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا : أجل، تصديقاً من بعضهم لبعض ثم قالوا : هذان لساحران^(٢).

وقيل : إن المبهمة لما لم يظهر فيه إعراب في الواحد ولا في الجمع جرّت في التثنية على ذلك فأتي بالألف على كل حال، أو أن هذه الألف ألف هذا لا ألف المثني^(٣).

ولعل القول بأن هذه القراءة قد جاءت على لهجة كانت معروفة لقوم كثير من العرب -كما قدمنا- هو أسلم تلك التخاريج جميعاً.

٢- وقد سبق أن من العرب من يعمد إلى قلب كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألفاً حتى ياء المثني أيضاً.

حكى أبو زيد : أخذت الدرهمان، واشترت الثوبان، والسلام علاكم.

قال المفضل : وأنشدني أبو الغول لبعض أهل اليمن :

أَيُّ قَلُوصٍ رَاكِبٍ تَرَاهَا طَارُوا عَلَيَّهِنَّ فَشَلُّ عَالَاهَا
وَأَشَدُّ بِمَتْنِي حَقَبٍ حَقَّوَاهَا نَاجِيَةً وَنَاجِيًّا أَبَاهَا

(١) الغني ١ : ٣٨ . (٢) حجة القراءات ٤٥٥ .

(٣) إعراب مشكل القرآن ٢ : ٧٠، وانظر شذور الذهب لابن هشام : ٤٩٠ .

قال : وقد اختار هذا القول الإمام العلامة ابن تيمية -رحمه الله- وزعم أن بناء المثني إذا كان مفردة مبنياً أفصح من إعرابه .

قال أبو زيد: وهذه الأبيات جاءت على لغتهم.

وأنشدوا عليها قول القائل:

تَزُودَ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاهُ ضَرْبَةً دَعَتْهُ إِلَى هَابِي التُّرَابِ عَقِيمٌ (*)

وقال آخر:

فَاطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَرَى مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا (**)

وقد نُسبت هذه اللغة إلى بني الحارث بن كعب من قحطان وآخرين^(١).

وبتأملنا فيمن نسبت إليه هذه اللغة من قبائل العرب نجد اتساع الرقعة الجغرافية التي شملتها هذه الظاهرة اللهجية بحيث لا يمكن قصرها على قبائل اليمن فقط، فإذا وجدنا نسبتها إلى بعض قبائل يمنية كبني الحارث بن كعب وزبيد وخثعم وهمدان ومراد وبعض بطونها كعدرة نجد نسبتها أيضاً إلى قبائل عدنانية شمالية ككنانة وبكر بن وائل وبطون من ربيعة وبعض بني سليم وبني العنبر وبني الهجيم وهم من قبائل شرقي الجزيرة العربية ووسطها.

ولا يمكن تفسير هذا الظاهرة إلا بأحد أمرين:

١- أن القول بأن هذه اللغة كانت قليلة الشيوع غير صحيح إذا أخذنا في الحسبان تلك القبائل التي عزيت إليها هذه الظاهرة اللهجية لاسيما وأن أصحابها قبائل قحطانية وعدنانية تناثرت منازلها ولا ارتباط بينهم ظاهرياً لا من جهة النسب أو غيره.

(*) البيت لهوهر الحارثي. وقد ورد في النوادر ٥٨، البحر: ٦: ٢٥٥. الكشف ٢: ٩٩.

وتزود: اتخذ له زاداً، هذا أصله. وهابي التراب: ما ارتفع منه ودق.

وعقيم ههنا: يريد به الذي لا ينفع ولا يرد خيراً. يقول: تزود منا ضربة بين أذنيه ألقتة ميتاً.

والشاهد: في أذناه: حيث ألزم المثني الألف في الأحوال الثلاثة.

(**) البيت قد نسب إلى المتلمس.

وإطرق: إذا سكت فلم يتكلم وأرخی عينيه ينظر إلى الأرض، والشجاع: الشديد ساعة البأس - هذا

أصله - ومساعاً: مدخلاً وطريقاً. وناباه: مثني ناب وهي الأسنان التي خلف الرباعية.

والشجاع الثاني: قد يقصد به نوعاً من الحيات. وصمما: أي نيب وعض فلم يرسل ما عض والشاهد:

إلزام ناباه الألف في الجر.

(١) توجيه أبيات ملغزة الإعراب ٢٧٨ وما بعدها.

شذور الذهب ٤٧.

٢- وربما كان أصحاب هذه اللهجة قبائل وثقت بينهم عرى البداوة وتشابهت ظروف بيئتهم الصحراوية فدعتهم الرغبة في الانسجام والتجانس الصوتي إلى قلب الياء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفاً، ولا ريب في أن إجراء الحركات على نسق صوتي واحد فيه اقتصاد للجهد العضلي وليكون عمل اللسان من وجه فتقريب الصوت إذن من ناحية الفتح أيسر على اللسان من الانتقال به إلى صوت آخر. وبالتحقيق وجد أن هذا العمل قد شاع نظيره بين القبائل البدوية في جانب الإمالة حيث جنحت إلى إشمام بعض الأصوات أصوات بعضها الآخر فأشمت الفتحة كسرة وضمّة والكسرة ضمّة وفتحة.

فلا نستبعد -والحالة هذه- أن يكون من نسبت إليه هذه اللهجة قد دفع إليها نتيجة لواقع البيئة التي فرضت عليهم طابعاً متشابهاً من عادات النطق فتشكّلت أعضاؤهم النطقية على نسق فيه من التماثل ما قرب العدناني من القحطاني والشمالي والجنوبي والشرقي.

وقد أنكر أبو العباس المبرد لزوم المثني وما ألحق به الألف رفعاً ونصباً وجرّاً^(١). ولا وجه لإنكاره ذلك فقد نقلها كثير من أئمة اللغة والنحو، وفي أكثر من موضع من مؤلفاتهم، ونسبوها إلى قبائل بأعيانها. ولا شك في أن من سمع حجة على من لم يسمع، إضافة إلى ورودها في كثير من كلام العرب شعراً ونثراً.

وقد قرأ بها عدد كبير من أئمة القراءة في قوله تعالى: ﴿هَذَا خِصْمَانِ﴾ -كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق- وهم نقلة كتاب الله والمتلقون له، وقراءاتهم خير ما يمثل واقع لهجات قبائلهم حيثئذ في أدق خصائصها بل يرى بعض الباحثين المحدثين^(٢) أن إلزام المثني الألف والنون أسلوب في الكلام لا علاقة له بحال من أحوال الإعراب، فهي تمثل لغة قسم كبير من العرب، ووجدت في كلامهم ممثلة لللهجات الإقليمية، ولهذا يرجح أن الياء والنون اللتين تلحقان المثني في حالتي

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني ١ : ٧٩.

(٢) انظر فقه اللغة المقارن -إبراهيم السمرائي: ٨٦ وما بعدها بتصرف.

النصب والخفض إنما جاءت نتيجة تطور صوتي لحق الألف بالإمالة التي كانت شائعة في منطق معظم قبائل العرب فهي على هذا لغة لجماعة من الناس وفي جهات إقليمية معينة، ثم لما درجت العربية في طريقها التطوري وأن لها أن تنسجم في لغة هي لغة القرآن والحديث اختص الاستعمال المثنى بالألف لحالة الرفع، والمثنى بالياء لحال النصب والجر، وفي ظني أن الزجاج قد سبقه إلى هذا الرأي^(١).

وكما وقع الاختلاف بين القبائل العربية حول إعراب المثنى بالحركات المقدرة على الألف أو إعرابه المشهور بالألف رفعاً وبالياء نصباً وجرّاً وقع بينهم الاختلاف حول حركة نون المثنى الواقعة بعد الألف. وهل هي تختص بحالة لزوم المثنى الألف في الأحوال كلها أو تشمل الياء أيضاً؟ قولان: فقد ذهب بعضهم إلى أن فتحها إنما هو خاص بالياء، وحكي ذلك عن البغداديين ومن نهج نهجهم، وهي لغة لبني أسد^(٢).

وذهب غيرهم إلى أن ذلك خاص بحالة الخفض والنصب فقط في لغة من ألزم المثنى الألف في جميع الأحوال وقد قال به ابن عصفور في كتاب الضرائر^(٣). والذي عليه عامة النحويين أن ذلك شامل للألف والياء معاً، فمن الياء قول حميد بن ثور:

عَلَى أَحْوَدَيْنِ اسْتَقَلَّتْ عَشِيَّةٌ فَمَا هِيَ إِلَّا لُمْحَةٌ وَتَغِيبٌ^(*)

(١) أورد الزجاج في إعراب القرآن حول كلامه عن الآية: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ في النوع ٨٦: وهو ما جاء في التنزيل وقد رفض الأصل واستعمل ما هو فرع «ما يشبه هذا الكلام وربما الدكتور إبراهيم السمرائي قد أخذه عنه وإن لم يشر إلى ذلك، فقد قال: . . . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ الأصل في ألف التثنية أن تكون كعصا ورحا في الرفع والنصب والجر على صورة واحدة لأن الحركة فيها مقدرة كما هي في ألف «عصا ورحا» ولكنه جاء الاستعمال على قلبها ياء في النصب والجر حرصاً على البيان إذ لم يكن هناك ما في المفرد من البيان ألا تراك تقول: ضربت موسى العاقل عيسى الأديب، فيستبين الرفع بالصفة بعد الفاعل ونصبها بعد المفعول وهذا المعنى لا يتأتى بالتثنية لو قلت: ضرب الزيدان العاقلان العمران القائمان لم تتغير الصفة فجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ على الأصل الذي ينبغي أن يكون عليهم. . إعراب القرآن ٣: ٩٣٣. تحقيق إبراهيم الإبياري - ط القاهرة الهيئة العامة لشئون المطابع المصرية.

(٢) شرح الفصل ٤: ١٤١.

(٣) ضرائر الشعر ٢١٧ - الخزانة ٣: ٣٣٨.

(*) البيت لحميد بن ثور الصحابي الهلالي أحد الشعراء المجيدين واشتهر بوصف القطاة - ديوانه: ٥٥، =

ومن الألف ما قاله أبو زيد:

أنشدني المفضل لرجل من بني ضبة:

أَعْرِفُ مِنْهَا الْجَيْدَ وَالْعَيْنَانَا وَمَنْخَرَيْنِ أَشْبَهَا ظَبْيَانَا
ففتح النون في موضع الرفع.

٣- وحكى الشيباني وغيره من أئمة اللغة أن بعض العرب يضم نون التثنية مع الألف خاصة وعليه قول بعض العرب: هما خيلان، وهذان الزيدان، والعمران... ومنه قراءة بعضهم «تُرْزَقَانُهُ فِي الْفَعْلِ، وقوله:

يَا أَبَتَا أَرْقِنِي الْقِدَانُ فَالنَّوْمُ لَا تَأْلُفُهُ الْعَيْنَانُ(*)
قالوا: وهو من الشذوذ والقلة بحيث لا يقاس عليه^(١).

ومن خلال تتبعي لبعض المصادر النحوية رأينا أنها تفترق في عزو ظاهرة فتح نون المثني إلى فرقتين:

١- الفرقة الأولى: تنسب فتح نون المثني وما ألحق به مع الياء إلى بني أسد - على ما أسلفنا- روي ذلك عن الفراء والكسائي، فقد نقل خالد الأزهري عن الفراء: أنها لغة بني أسد^(٢)، وكذا فعل العيني في شرح شواهده حين قال: ... إن فتح نون التثنية لغة بني أسد وليس بضرورة^(٣).

= ويروى فتغيب. والأحوذى: الخفيف في المشي أو الراعي المتشمر للرعاية العنابط لما ولي. والمراد هنا: جناح القطة، يصفها بالخفة. واستقلت: استبدت. وعشية: آخر النهار. واللمحة: النظرة بالعجلة. والشاهد في قوله: على أحوديين: حيث فتح نون المثني والقياس كسرهما وهي لغة.

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني ١: ٩٠، شرح المفصل ٤: ١٤٣.

شرح الكافية ٢: ١٧٣.

(٢) شرح التصريح ١: ٧٨. (٣) شواهد العيني على هامش الخزانة ١: ١٨٣.

(*) القدان: بكسر القاف وتشديد الدال: البراغيث، واحدة قذة بضم القاف، ومنهم من يقول: إنه بالدال المهملة. والبيت أنشده أبو عمرو الزاهد في كتاب البواقيت. والشاهد: ضم نون -القدان... والعينان. وذلك بإعرابه إعراب المفردات، ولهذا رفع النون فيهما، وهي لغة حكاها الشيباني.

٢- الفرقة الثانية: رَأَتْ أَنْ فَتَحَ نُونُ الْمُثْنَى مَعَ الْأَلْفِ قَدْ جَاءَ أَيْضًا فِي لُغَةِ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَلْزَمُوا الْمُثْنَى صُورَةً وَاحِدَةً رَفْعًا وَنَصْبًا وَجَرًّا^(١).

وغير بعيد أن يكون هذا الفتح قد نسب إلى تلك القبائل التي تجري ألف المثنى مجرى ألف القصر في الأحوال الثلاثة دون تغيير -وقد سبق ذكر أسماء قبائلهم- وبها قرئ في الشواذ أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَفْ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ﴾ [الأحقاف: ١٧]... «حيث قرئت» «أَتَعِدَانِي» بفتح نون الرفع مع الألف^(٢) في الفعل رغبةً في التخفيف، وكذلك يُفعل في المثنى مع الأسماء.

وما سبق قراءة كثير من القراء كالحسن وشيبة وأبي جعفر وعبد الوارث والجحدري وهشام عن ابن عامر، وحكاها أبو حاتم عن نافع، ورواها سلام ومحبوب عن ابن كثير^(٣).

كأنهم فروا من الكسرتين والياء إلى الفتح طلبًا للتخفيف ففتحوا، قيل: وهي لغة شاذة^(٤).

(١) الضرائر الشعرية ٢١٨. الخزانة ٣: ٣٣٨.

(٢) شرح الكافية ٢: ١٧٣.

(٣) البحر ٨: ٦٢، النشر ١: ٢٠٣.

(٤) إملأ ما مَنَّ به الرحمن ٢: ٢٣٤، الشواذ ١٣٩.